مركز البيدر للدراسات والتخطيط
Al-Baidar Center For Studies And Planning

دور المرأة المفكرة في مرآة العقل الناقد

أ.د. عبد الجليل كاظم الوالي

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

ظل دور المرأة المفكرة في صناعة التاريخ واحدة من الموضوعات التي لم يهتم بها الباحثون ذلك الاهتمام المتميز مثلما اهتموا بموضوعات المرأة الأخرى، كالجمال والمساواة والجندر.

إذ إنَّ للفكر ميزة أساسية عن باقي أنشطة الإنسان فهو يتعلق بالمعرفة، والمعرفة ذات طرفين : ذات عارفة وموضوع مدرك، فضلاً عن أدوات معرفية تدرك بها الذوات العارفة لموضوعاتها، كالحس والعقل والحدس، فهي تحتاج إلى قدرة وقابلية متميزة، لكن السؤال الذي يُطرح، هل أن البشر مختلفون فيما بينهم في هذه القدرة الفكرية؟

الجواب إلى الآن وَفقاً لمنطق العلم والواقع الفعلي، نعم، فالبشر مختلفون في مستوياتهم الفكرية والذهنية، وأعتقد أنْ لا خلاف في الإجابة عن هذا السؤال، لكن الخلاف يكمن في ، هل أن الفروق سببها طبيعة الجنس؟ وتحديداً تصنيف البشر إلى ذكر وأنثى، أو أن شكل البشرة هو سبب الخلاف؟

شكل البشرة، أجاب عنه المفكرون الغربيون مثل (رينان) واتبعهم بعض السياسيين (كهتلر)، بالقول إن الجنس الأشقر هو أرقى الأجناس البشرية ولديه القدرة على التفكير والإبداع أفضل من غيره، وهذه النظرة هدفها سياسي أكثر من كونه ثقافياً فكرياً، وهي تهدف إلى التقليل من قيمة الأجناس البشرية الأخرى، لكن لم يثبت العلم لحد هذه اللحظة بأن شكل البشرة يؤثر في التفكير، بل يمكن القول بأن الجنس الشرقي قد أبدع حضاراتٍ شامخةً تمتد في عمق التاريخ الإنساني كحضارة وادي الرافدين والحضارة المصرية والحضارة الهندية والحضارة الصينية وهي جميعاً لم يكن بشرها ذا عيون زرقاء وشعر أشقر، وهناك الكثير من الجنس الأشقر لم يبدع حضارة، إذن فتصنيف البشر وفقاً للجنس هو موضع نقاش وجدل.

لكن الشق الأول من السؤال هو تصنيف البشر إلى ذكر وأنثى، وهل أن الذكر له فروق وميزات فكرية مختلفة عن الأنثى؟

هذه المسألة هي الأخرى موضع نظر، إذ نظر إليها علماء النفس وفقاً لتحليل سمات الشخصية وكانت نظرتهم مغايرة لنظرة علماء البيولوجيا الذين ركزوا على اكتساب المهارات للذكر والأنثى من خلال التفاعل مع الوسط الاجتماعي، بينما المدرسة الثقافية والاجتماعية ألغت الفروق

البيولوجية والفسيولوجية بين الرجل والمرأة واعتبرت أن الاختلاف بين شخصية المرأة وشخصية الرجل يعود إلى النظام الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعادات والتقاليد والقيم.

وفي تراثنا لم نجد ذكراً لكون الرجل أكثر ذكاءً من المرأة وبالتالي لابد أنْ يقود الفكر والثقافة، بل إن هناك العديد من النساء المفكرات والمبدعات، فهن قياديات على صعيد الفكر والسياسة والاقتصاد ومختلف الجوانب الاجتماعية والثقافية، إذ إن النساءُ بايعن الرسولَ الكريمَ محمداً (ص) مرتين، بيعة النساء وبيعة العقبة، فضلاً عن ذلك فإنَّ الرسول (ص) كان يستشير النساء استناداً إلى قوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم) فهذه الآية عامة لكل من الرجل والمرأة.

لذا سأحاول في بحثي هذا قراءة مسيرة المرأة المفكرة، والإجابة عن بعض من الأسئلة التي أثيرت حولها، وسأذكر أمثلة وشواهد من النساء المفكرات ودورهن في صناعة التاريخ.

أولاً: منزلة المرأة الاجتماعية

في الحضارات الشرقية القديمة

يشير علماء التاريخ والإنثروبولوجيا إلى أن المجتمعات البدائية الأولى تعطي المرأة قيمة أكثر من الرجل وبالتالي فإن المجتمع البدائي أموميٌّ لأن الأم هي عصب الحياة الاجتماعية وهي التي ينسب إليها الأطفال، إذ إنَّ الابن يُنسب إلى أمه أكثر مما يُنسب إلى أبيه، والمرأة لا تنتمي إلى زوجها بل تنتمي إلى أبيها أو أخيها أو إلى القبيلة، لذا كانت رابطة الأخوة أقوى من رابطة الزواج.

وفي المجتمع الريفي كانت المرأة ذات الدور الأول في تطوير حرفة الزراعة ، وفي تقدم الزراعة زاد نفوذ الرجل إلى أن أصبح هو الأقوى في السيطرة على المهنة وأصبحت رابطة الأبوة أقوى من رابطة الأمومة.

وكانت منزلة المرأة في المجتمع الريفي مثل منزلة العبد فهي ملكٌ لزوجها، وحياتها مرهونة بحياة زوجها فإذا مات زوجها دفنت معه، أو يطلب منها الانتحار بحجة خدمة زوجها في الحياة الأخرى، مثلما هو حاصل في المجتمعات الهندية.

لذا يمكن القول بأن طبيعة المهنة التي مارسها المجتمع البدائي هي التي فرضت نوعية المكانة التي تحتلها المرأة، فالزراعة في المجتمع البدائي فرضت العبودية على المرأة، لكن الحال لم تبقَ على ما هي عليه بل وصلت المرأة إلى مرتبة الآلهة، ففي الحضارة الفرعونية كان كثير من الآلهة نساء ويقدم إليهن القرابين ومن النساء الآلهة في الحضارة المصرية، ماعت ربة الحقيقة، نايت إله الحرب، ومن الملكات المصريات قديماً، حتب، وخنت، وكاوس، وكليوباترة، ونفرتيتي، والملكة المصرية حتشبسوت التي ظهرت تماثيلها على شكل أبي الهول لها رأس وجسد أسد رمزاً للعقل والقوة.

وعلى الرغم من مكانة المرأة هذه في الحضارة المصرية إلا أن الذكر في الأسرة المصرية يتمتع بمكانة أعلى من مكانة المرأة، وشاعت في الحضارة المصرية عقيدة الخطيئة الأبدية وهي أن المرأة حليفة الشيطان وشرك للغاوية والرذيلة ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من حبائلها.

لذا يمكن القول بأن الحضارة المصرية تقدس المرأة كإله وفي نفس الوقت تلصق بها الخطيئة وتقترن بالشيطان وتلك هي الازدواجية التي مثلتها الحضارة الفرعونية.

أما في حضارة وادي الرافدين فقد كان للمرأة السومرية حقوق على أولادها وزوجها وهي التي تدبر بيتها عند غياب زوجها، لكن الرجل هو المسيطر، وقد نص قانون حمورابي (إذا طلق الزوج زوجته تلقى في النهر) وإنَّ المرأة إذا أهملت زوجها أو تسببت في خراب بيتها تلقى في النهر، لكن لا ينطبق هذا الحكم على الرجل المطلق فهو لا يقذف بالنهر مثلما تقذف المرأة بل المرأة التي تقذف والرجل ينال كامل حقوقه، لكن نساء الطبقة العليا كن يحيين حياة مشرفة، كما كان من حق المرأة البابلية امتلاك الثروة والتصرف فيها بالبيع والشراء مما أتاح لها حرية الحركة لكي تؤدي هذه الأعمال لذا فهي من هذه الناحية لا تفترق عن الرجل، فكان منهن الكاهنات والتاجرات وكن يتعلمن مثل الرجال، فضلاً عن ذلك تشير عبادة عشتار إلى أن المرأة والأمومة كان لهما قسط من التبجيل في بلاد بابل، مثلما تشير مريم العذراء في العصور الوسطى إلى ما كان لها من التبجيل وقتئذ، التبجيل هنا أيضاً نوع من القداسة كما هو الحال في الحضارة الفرعونية.

في الحضارة الفارسية كانت الديانة الزرادشتية تحط من قدر المرأة وكان للزوج حق التصرف في زوجته، لكن من حق المرأة في الأسر الغنية امتلاك العقارات والتصرف بشؤون زوجها باسمه

أو بتوكيل منه، أما المرأة الفقيرة فتتمتع بحرية التنقل لأنها مضطرة إلى العمل، ومع حق الملكية الممنوح للمرأة كان الرجل يستطيع التصرف بالمرأة وملكيتها، أي الاثنين معاً.

أما الشريعة الهندية فقد ذهبت أبعد من الحضارة الفارسية إذ إنها تجعل المرأة طوال حياتها تحت سيطرة الرجل ففي مرحلة الطفولة تتبع والدها وفي الشباب تتبع زوجها وإذا مات زوجها تنتقل الوصاية إلى أبنائها الذكور فإذا لم يكن له أبناء انتقلت الوصاية إلى عمومتها أو الأقرباء، أو تحرق نفسها عند وفاة زوجها وهذا يدلل على أن حياتها مرتبطة بالزوج وبالتالي فهي تنتهي بوفاة زوجها لذا يحكم عليها بالحرق.

ويصل الامتهان للمرأة إلى حد كبير في الحضارة الصينية، إذ هناك قاعدة في الحضارة الصينية أنه (ليس في العالم شيء أقل قيمة من المرأة) كذلك كانت (النساء آخر مكان في الجنس البشري ويجب أن يكون نصيبهن أحقر الأعمال) عليه فهل من الممكن أن تنهض امرأة إن كانت قيمتها أقل شيء في هذا العالم ومهمتها أحقر المهن؟

النظرة الغربية للمرأة

يعتقد أرسطو بأن جنس الذكر أصلح للرئاسة من جنس الأنثى، لأن المرأة أقل قدرة عقلية من الرجل، ومن ثم فتسلط الرجال على النساء مسألة طبيعية جداً، ويعد أرسطو الذكر بأنه الذي يقدم لنا الصورة أو الروح في الجنين في حين إن المرأة لا تقدم سوى المادة أو الهيولى، لذا فالذكر يقدم الروح بينما الأنثى تقدم الجسد أي المادة، وتعدُّ هذه الفكرة خطأً علمياً وقع فيه أرسطو، إضافة لأخطائه الأخرى تجاه المرأة والتي منها قوله، إنَّ المرأة لديها أسنان أقل من الرجل، إذ قال عنه برتراند رسل بأن أرسطو لو نظر إلى أسنان زوجته لاكتشف هذا الخطأ، وقال أرسطو بأنَّ المرأة هي ذكر بلا أعضاء جنسية، ووظيفة النساء هي كونهن خادمات للأب أو الزوج وقد شاعت أفكار أرسطو هذه في كل أرجاء العالم القديم والحديث.

وفي رأي أرسطو ليس المجتمع هو الذي وضع المرأة بهذه المنزلة بل الطبيعة هي التي فعلت ذلك، وفكرته هذه تُشابه تماماً فكرته الأخرى التي يقول فيها بأن العبد عبدٌ بالطبيعة وليس بالاتفاق، والطبيعة في رأيه لا تفعل شيئاً باطلاً، فهي التي جعلت المرأة على هذا القدر من

الدونية ولا دخل للعادات والتقاليد بذلك، وهذا تماماً عكس ما كانت تتبناه المدرسة السوفسطائية ، بروتاغوراس وجورجياس وهيبياس ، الذين كانت أفكارهم تنصب على أن العبد عبدٌ بالاتفاق وليس بالطبيعة ، واعتبرت فكرة أرسطو عن المرأة أساساً للتقليل من قيمة المرأة والحط من أهميتها إلا أنَّ النساء اليونانيات أثبتن عكس ذلك تماماً، إذ أبدعن في الفلسفة وارتبط تاريخ إبداعهن بالمدرسة الفيثاغورية، وكانت هذه المدرسة الفلسفية تعتقد بأن المرأة لا تختلف عن الرجل من حيث القدرة ولا من حيث القيمة.

عليه فقد اهتمت النساء الفيثاغوريات بالفلسفة وكانت ثيانو (Theano) زوجة فيثاغورس أشهرهن جميعاً وقد قامت هي وبناتها الثلاثة برئاسة المدرسة الفيثاغورية بعد وفاة زوجها، وبناتها هن (أريجنوت Arignoteومييا Myia ودامو Damo) وكانت موضوعات التفلسف عندهن هي الأسرة والدولة.

ويذكر ديوجين اللائرسي أن أول امرأة مفكرة هي كليوبولينا (Cleobulina) وهي أم طاليس الفيلسوف اليوناني الأول الذي ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد، ومن النساء الفلاسفة اليونانيات أسبازيا وهي معلمة البيان والتي أعترف سقراط بقدرتها على الخطابة وهي التي وضعت الخطاب الجنائزي لبركليز الذي ألقاه في ذكرى شهداء أثينا في حربها مع أسبرطة، ومن النساء الأخريات ديوتيما معلمة سقراط ولها نظريات في الحب وخلود النفس. وكذلك جوليا التي ترعى الفلاسفة وعلماء الرياضة ومنهم الإسكندر الأفروديسي وجالينوس الطبيب، وماكرينا الزاهدة المتصوفة وهيباشيا فيلسوفة الإسكندرية. أما المرأة في القانون الروماني فهي في مرتبة أدنى من مرتبة الرجل، وصلة القرابة أو النسب تتبع قرابة الدم من الذكور وليس من جهة النساء، ولم تحصل المرأة على التحرر في القوانين الرومانية بل ظلت تحت وصاية الرجل، ويصل الأمر بالرومان إلى إعطاء الحق للأب ببيعها وله حق قتلها.

لكن الديانة اليهودية تركز بوضوح على سيادة جنس الذكر على جنس الأنثى، ويصلي الرجل اليهودي (أحمدك يارب ..لأنك لم تخلقني امرأة) بينما المرأة تصلي (أحمدك يارب ..لأنك خلقتني وفي مشيئتك وإرادتك) لذا فاليهودية تجرد المرأة من جميع حقوقها، لكن ما ورد في وصايا موسى العشر عكس ما هو في الواقع، ففي الإصحاح الأخير من سفر الأمثال وصف للمرأة المثالية كما يراها

ويتمناها الرجل (امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلئ، بها يثق قلب الرجل فلا يحتاج إلى غنيمة، تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها، تطلب صوفاً وكتاناً، وتشتغل بيدين راضيتين)، وفي التوراة تعد المرأة هي أصل الخطيئة (من المرأة ابتداء الخطيئة، وبسببها غوت جميعاً).

أما في الديانة المسيحية فكان الكهنة يعطون الحق لأنفسهم في حرق وتعذيب المرأة باسم الدين وباسم المحافظة على القيم والأفكار السائدة وكانوا يسمون المرأة القوية بالمرأة الساحرة الشريرة، ولا يسمح لهن بالكلام في الكنيسة وهي شر لابد منه وإغواء طبيعي وكارثة مرغوب فيها، وخطر منزلي، وفتنة مهلكة وشر عليه طلاء.

تلك هي النظرة الغربية القديمة للمرأة، فهم مثلما ينظرون إلى الأغراب على أنهم برابرة كذلك الحال داخل مجتمعاتهم يطبقون نفس النظرة على المرأة، ومثلما لاحظنا نظرتهم للمرأة في اليونان والرومان والديانتين اليهودية والمسيحية لكن واقع الحال الآن مختلف تماماً.

ثانياً: المرأة المفكرة في التراث العربي

المرأة الحكيمة

الإسلام ثورة فكرية على أنظمة وعادات وتقاليد على مختلف المستويات، والمرأة هي واحدة من هذه المستويات وكان العربي ينظر إلى المرأة نظرة مادية فحالها حال متاع الدنيا لذا فوظيفتها إشباع شهوة الرجل، وهو يحتقرها بل وصل الأمر ببعض القبائل إلى وأدها والتفاخر بهذا الوأد مثل ربيعة وكنده وتميم، والرجل هو الوصي على المرأة والزواج لا دخل للمرأة فيه بل إنَّ الرجل هو الذي يسير الأمور، فضلاً عن ذلك فإنها لا تتساوى مع الرجل بالحقوق، بل ليس لها الحق في الإرث.

وعلى الرغم من ذلك فإن النساء في الجاهلية مارسن مهناً متعددة منها: حرفة الإرضاع، حرفة تقويم الرماح، وحرفة رعي الإبل والماشية كالعبيد، وحرفة دباغة الجلود، وحرفة الزراعة وحرفة الكهانة والعرافة، وحرفة القابلة.

واشتهرت بعض النساء بالجاهلية بالطب كزينب طبيبة بني عواد التي كانت تعالج الأبدان وتطبب العيون وتداوي الجرحى، وكان محمد بن الجهم يقول: لا تتهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز فإن كثيراً من ذلك وقع إليهن من قدماء الأطباء.

أما الفطنة والدهاء والكلام الفصيح فمنهن:

هند بنت الخلس وهي الزرقاء وجمعة بنت حايس، ورابعة القيسية، وعاذة العدوية وصخر بنت لقمان وحذام بنت الريان وخصيلة بنت عامر ابن الطرب وفاطمة بنت الخرشب ومارية بنت ظالم بن وهب الحارث الكندية.

ومنهن من تولت مناصب الكهنة مثل عفيراء الكاهنة الحميرية، وزبراء أمة بني رئام وظريفة التي ينسبون إليها التكهن بسيل العرم لأنها رأت سد مأرب سيخرب، وعرافة الحجاز التي احتكم إليها عبد المطلب بن هاشم حين هم بذبح ابنه عبد الله فحكمت بفدائه وكاهنة بني مرة (الغيطلة) التي نسب إليها أنها تنبأت ببعثة النبي (ﷺ).

بلقيس ملكة سبأ نموذج للمرأة الحكيمة، لأنها تمتلك من الصفات مالا تمتلكها امرأة أخرى في زمانها، فهي أولاً ملكة على درجة عالية من الجمال، وتمكنت من الحكم بعد ذبح خصمها عند سيطرة الخمر عليه، وبايعها أمراء وملوك حمير، وتوصف بأنها امرأة شجاعة وحكيمة ومدبرة، إذ رممت سد مأرب الذي يجمع الماء بين ثلاثة جبال كالبحر، وهي صاحبة الصرح الذي ورد في القرآن الكريم وبنت قصر بلقيس في مدينة مأرب، وكانت أحوال الناس قد استقرت وازدهرت الزراعة والتجارة وازدادت ثروات البلاد .

كانت بلقيس تحكم بالشورى واعترفت بخطئها عندما أدركت الحقيقة، وقبلت دعوة النبي سليمان (عليه السلام) إلى الإيمان وطلب الغفران والدليل على هذه الصفات:

قال تعالى (قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ) فهي حاكمة وتتبع نظام الشورى (قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ33 قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ).

وقال تعالى(قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

هنا أيضاً الاعتراف بالخطأ وطلب الصفح، مع هذه الحكمة والشجاعة والأخلاق إلا أنَّ

التاريخ لم يذكر لنا كتاباً ألفته بلقيس فهي لم تخلف مؤلفاً وراءها.

واشتهرت من النساء عند عرب الجاهلية من لهن قدر من العقل السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين (رضي الله عنها) فهي فقيهة دون أن تجلس للفقه، وتعلمت الفقه من خلال ملازمتها لرسول الله (ﷺ).

وقامت المرأة العربية بالكهانة ومن هؤلاء الكاهنات سعدى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس، وهي خالة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وقد أسلمت قبله ودعته إلى الإسلام.

الشفاء بنت عبد الله، أطلق عليها لقب أول معلمة في الإسلام، تعلمت القراءة والكتابة وعلمتها لنساء المسلمين وأمهات المسلمين، وكانت ممن علمتهن (الشفاء) حفصة بنت عمر زوج الرسول (ﷺ)، وبناء على طلب الرسول (ﷺ)، قالت الشفاء دخل رسول الله (ﷺ) وأنا عند حفصة فقال لى: (عليك أن تعلميها النمل كما علمتِها الكتابة)، وكانت الشفاء إحدى النساء المعلمات السابقات إلى معرفة القراءة والكتابة قبل الإسلام، وكانت كذلك من المهاجرات الأوليات إلى المدينة المنورة، ولم يكن في مكة عند ظهور الإسلام سوى عشرة رجال يقرؤون ويكتبون، ثم تكاثر عددهم فيما بعد.

المرأة الراوية للحديث

عائشة بنت أبي بكر الصديق أم المؤمنين (رضي الله عنها) زوجة الرسول (ﷺ) كانت فاضلة ذات ذكاء وفطنة وأثرت في حياة الرسول (ﷺ) وفي حياة الإسلام تأثيراً بالغاً، وهي فقيهة ومرجع في الحديث والسنة وقد روي عنها من صحيح الحديث عن رسول الله (ﷺ) أكثر من ألفين ومائة وعشرة أحاديث.

أم سلمة المهاجرة (رضي الله عنها) زوجة الرسول الكريم محمد (ﷺ) صاحبة الرأي السديد والعقل والكمال والجمال وقد احتفظت لنفسها بقدر ومكانة وقد شهدت مع الرسول (ﷺ) فتح خيبر وفتح مكة وصحبته في حصار الطائف وغزو هوزان وثقيف وكانت معه في حجة الوداع، وفي صلح الحديبية أحس المسلمون بأن حقهم قد ضاع وهم المنتصرون، وقد أمرهم الرسول(ﷺ) ثلاث مرات بأن يقوموا فينحروا ثم يحلقوا لكن أحداً منهم لم يستجب، ودخل الرسول (ﷺ) على أم

سلمة وأخبرها بما حدث فأشارت عليه أن ينحر ويحلق دون أن يكلم أحداً، فلما رآه المسلمون قاموا وفعلوا مثلما فعل، وقد روت أم سلمة ثلاثمائة وسبعة وثمانين حديثاً، وكذلك حفصة بنت عمر أم المؤمنين (رضي الله عنها)، وبقيت أزواج الرسول (صلى الله عليه وآله) جميعهن رواة للحديث بدرجات متفاوتة، وكذلك فاطمة (ع) بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد كانت راوية للحديث، وكان الباحثون وأعمدة الإسلام يروون نقلاً عن هؤلاء النساء.

أما النساء الشاعرات فهن كثر منهن، أروى بنت عبد المطلب عمة رسول الله (صلى الله عليه وآله) وزينب بنت على بن أبي طالب سبط رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكذلك الخنساء بنت عمرو بن الحارث من قبيلة مضر وتلقب بأم الشهداء لقتل أخويها معاوية وصخر قبل الإسلام وفجعت بمقتل أولادها الأربعة في معركة القادسية، واشتهرت بمراثيها وكان الرسول (صلى الله عليه وآله) يعجبه شعرها، ويروى عندما أسلم عدي بن حاتم الطائي مع أخته سفانة قال عدي، يا رسول الله إن فينا أشعر الناس وأسخى الناس وأفرس الناس.

فقال (صلى الله عليه وآله) له: سمِّهم.

فقال عدي: أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حجر، وأما أسخى الناس فحاتم الطائي يعني أباه، وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكرب.

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): ليس كما قلت يا عدي، أما أشعر الناس فالخنساء بنت عمرو، وأما أسخى الناس فمحمد -يعني نفسه- وأما أفرس الناس فعلي بن أبي طالب.

لذا تعد الخنساء شاعرة شهيرة واشتهرت بنظم المراثي الطويلة واتفق شعراء عصرها على أنه لم يكن هناك امرأة أجزل شعراً من الخنساء.

المرأة المتصوفة

رابعة العدوية شهيدة الحب الإلهي، من أشهر الصوفيين في الإسلام، بلغت من المعرفة مكاناً عالياً، يستفتيها كبار المتصوفين في عصرها، من أهالي البصرة، وسميت رابعة لكونها الأخت الرابعة التي ولدت لرجل فقير الحال يعمل على قارب له في نقل الناس عبر ضفتي النهر، وبعد وفاته

اشتغلت رابعة بمهنة أبيها لكي تعيل أخوتها لذا سميت بالعدوية من الذهاب والعودة، وأخواتها يغزلن الصوف لسد حاجات الحياة.

لكن البصرة أصيبت بالجفاف والمجاعة والغلاء فهرب الناس وأخوات رابعة معهم بحثاً عن الرزق، أما رابعة فقد باعها لص على تاجر أطلق سراحها بعد أن رأى منها مكرمات، اشتغلت عازفة للناي لكنها انصرفت للعبادة والصلاة والتفاني في حب الله إذ تقول (اللهم إني أعوذ بك من كل كائن يشغلني عنك، ومن كل حائل يحول بيني وبينك) وضعت رابعة أسلوباً فريداً في الحب الإلهي وهو الذي أسس عليه مناهج التصوف فيما بعد، وشعرها الصوفي يمثل جوهر الأدب الصوفي.

لبابة المتعبدة من أهل بيت المقدس وكانت من أهل المعرفة والمجاهدات قالت (إني لأستحي من الله تعالى أن يراني مشتغلة بغيره)، سألها رجل، أريد أن أحج فماذا أدعو في الموسم فقالت:

(سل الله تعالى شيئين: أن يرضى عنك، ويبلغك منزل الراضين عنه، وأن يخمل (يجعل) ذكرك فيما بين أوليائه).

مريم البصرية من أهل البصرة كانت تصحب رابعة وتخدمها وكانت تتكلم في المحبة فإذا سمعت بعلوم المحبة طاشت، وقيل إنها حضرت في مجالس بعض الواعظين فتكلم في المحبة فانشقت مرارتها فماتت في المجلس، (في الرواية نوع من المبالغة الحادة).

مؤمنة بنت بهلول من عابدات دمشق، ومعاذة بنت عبد الله العدوية كانت من أقران رابعة، وشبكة البصرية، ونسية بنت سلمان، وريحانة الوالهة من متعبدات البصرة، وغفيرة العابدة من أهل البصرة وعافية المشتاقة من أهل البصرة وأم عبد الله بنت خالد بن معدان، أنيسة بنت عمرو العدوية، أم الأسود بنت زيد العدوية، شعوائة، سعيدة بنت زيد، عثامة بنت بلال بن أبي الدرداء، أم سعيد بنت علقمة النخعية، كرية بنت عمرو.

وغيرهن من الصوفيات اللاتي يذكرهن أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات إذ بلغ مجموع ما ذكره منهن (84) أربعاً وثمانين امرأة لكنه لم يذكر نتاجهن الفكري بل يكتفي بذكر بعض الحكايات التي تبين طريقتهن الصوفية ويوثق تلك الحكايات وهذه الحكايات أو المواقف تعبر عن فكر يقف وراء هذا السلوك الذي تسلكه المرأة المتصوفة وتلك هي

طريقة الصوفية التي يميلون فيها دائماً إلى عدم الحديث وكونهم يصابون بالخرس خاصة في مرحلة الاتحاد، لكن نماذج الصوفية من الرجال تركوا لنا مؤلفاتٍ قيمةً تعبر عن الفكر الصوفي الذي أفرزته الحضارة العربية الإسلامية .

المرأة السياسية

الحجج التي يمكن الاعتماد عليها في أن الإسلام يؤمن بمشاركة المرأة في السياسة هي: السنة الفعلية لرسول الله (ﷺ) والتي تجلت في مشاركة المرأة في البيعة الأولى والثانية واستشارة الرسول (ﷺ) للنساء، إذ شاور (ﷺ) زوجته بعد صلح الحديبية.

وأول ما يتبادر إلى الذهن من النساء اللاتي تبوأن مركزاً على مسرح تاريخ النبوة هن امرأة فرعون وبلقيس ملكة سبأ وزنوبيا ملكة تدمر وابنة شعيب والمرأة التي جادلت الرسول.

فامرأة فرعون هي آسية بنت مزاحم، ودورها يكمن في أنها هي التي أنقذت نبي الله موسى من أن يقتله فرعون، عندما وجدته في التابوت، إذ ناشدته بقولها ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وكانت نقطة ضعف فرعون هي أنه محروم من الولد، فعفا عنه، لذا كان دور امرأة فرعون دور الأم والمربية والحاضنة ومن ثم المؤمنة بالرسالة متبرئة من فرعون وداعية الله أن يبدل قصرها في الدنيا ببيت في الجنة (وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ).

أما الحديث الذي يستدل به على المنع من تولي المرأة منصب رئيس الدولة وهو قوله (ص) (لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة).

لذا فلم تتولَّ المرأة الخلافة أو ولاية الأقاليم، ويدافع البعض عن ذلك أيضاً بحجة أن العمل السياسي يتناقض مع الطبيعة الأنثوية للمرأة، وإذا عملت المرأة بالسياسة فلابد أن تتشبه بالرجل واكتساب أهم صفة لديه وهي صفة القوامة.

الآيات التي وردت فيها لفظة القوامة وهي قوله تعالى {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ

اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}. وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ).

والقوامة تعني الالتزام بالعدل والقسط وهي صفة من صفات الله، ولابدَّ للإنسان أن يتشبه بصفات الخالق لذا فالقوامة في المجتمع هي مسؤولية تكليفية للرجل على أسرته وتعني العدل في المعاملة، فهي لا تعني التسلط الذي يقود إلى الاستغلال والعبودية بل تعني إقامة العدل والمساواة في الأسرة التي حدد الإسلام واجباتها، فكل فرد من أفراد الأسرة سواء المرأة والأبناء لهم حقوق وواجبات ولرب الأسرة إعطاء كل ذي حق حقه، وهذه هي القوامة بالمفهوم القرآني والتي لا تعني الاستعلاء واضطهاد حقوق المرأة وعدم منحها حريتها، أما لماذا القوامة بيد الرجل وليس بيد المرأة، السبب يعود إلى أن العلاقة الأسرية هي ليست استغلال وحاكم ومحكوم، بل هي علاقة مودة وتراحم وهي أقوى العلاقات الاجتماعية، هي أقوى من علاقة الأقارب أو الأصدقاء أو الجيران، لذا فلابد أن تكون هذه العلاقة منظمة على هذا المبدأ المودة والرحمة وهي مثل علاقة أعضاء الجسد بعضها بالبعض الآخر، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. وهذه العلاقة تتناقض تماماً مع مفهوم السلطة الأبوية التي منحت للأب كامل التصرف بكافة أفراد عائلته وهي أصل كل أشكال الاستبداد كما يرى أرسطو.

أما على صعيد الواقع الفعلي فعلى الرغم من أن البعض يرى بأن هناك تعارضاً بين مظاهر الأنوثة المتمثلة بخدمة الزوج والإنجاب وتلبية متطلبات الأسرة وبين العمل السياسي، إذ (استنكرت بلقيس ملكة اليمن على نبي الله سليمان (عليه السلام) تزويجها، وقالت: مثلي ينكح، وقد كان لي من الملك والسلطان ما كان)، لكن حقيقة الأمر أنَّ المبدأ في الولاية هو قدرة الشخص على أدائها وهذا المعيار عقلي وموضوعي ومنطقي لأن القدرة تحدد بقابلية الشخص على الفعل ولا تتحدد بجنسه فمن يكن لديه الإمكانية على فعل عمل ما عليه أن يؤديه ومن لم يكن لديه تلك القابلية عليه أن يتنازل لغيره و يعترف بقدرة غيره على الفعل والاعتراف بعدم قدرته هو على فعل ذلك، وأعتقد أيضاً أنَّ هذا المقياس هو السائد الآن في المجتمعات المعاصرة، لأن الوظائف تشغل الآن وفقاً للقدرة وليس وفقاً للأسس البيولوجية.

ونماذج النساء الملوك عديدة نذكر منها بلقيس ملكة سبا وزنوبيا ملكة تدمر التي من الممكن أن نعرضها كنموذج هنا كونها ملكة وفي نفس الوقت مفكرة إذ ألفت كتاباً عن تاريخ مصر وأسيا، وهي تنحدر من سليمان الحكيم لكنها تميل إلى كونها سليلة كليوباترة، جميلة وعفيفة وشجاعة، أدارت شؤون بلادها بحكمة وشجاعة وسميت إمبراطوريتها بإمبراطورية الشرق والتي امتدت من شواطئ البسفور حتى حدود النيل، لكنها انتهت أسيرة بيد الجنود الرومان، إذ قيدها أورليان الإمبراطور الروماني بسلاسل من ذهب، وسارت اللبوة الأسيرة في روما بهذا الوضع وتحت نظر الرومان، وعندما أدركت مصيرها هذا انقطعت عن الطعام حتى ماتت جوعاً وهي في قمة كبريائها.

ومن ملوك الأنباط خمس ملكات عربيات مابين سنة 169ق.م إلى 6 ق .م وفي كندة خمس ملكات منهن العمردة بنت الأعشى وماوية الغسانية التي حكمت فلسطين وسيناء وتولت ماء السماء بنت عرف الملك وإليها ينسب ملوك الحيرة . وفي الخلافة الأموية احتجت نساء كثر على سياسة معاوية وملوك وولاة بني أمية وسمين بالخارجات، أي من النساء المشاركات في حركة الخوارج، ودونت بلاغاتهن واحتجاجاتهن في بلاغات النساء لابن طيفور، وتدل هذه البلاغات على درجة الوعي العالية التي وصلت إليها النساء في ذلك الوقت، وهي في نفس الوقت تدل على شعور المرأة بشخصيتها ورغبتها بالمساهمة بالحياة السياسية لمجتمعها.

وأيضاً من بين النساء اللاتي لعبن دوراً فاعلاً في الجانب السياسي، عصمت الدين (شجرة الدر) كانت أول امرأة تعتلي دفة الحكم بعد وفاة زوجها، إذ أن زوجها توفى خلال الحروب الصليبية والحرب قائمة لكنها لم تعلن عن وفاته واستمرت بإصدار الأوامر العسكرية لمدة شهرين لكي لا تؤثر على معنويات الجند، وكانت نتائج المعركة لصالحها إذ أُسر الملكُ لويس الرابع الفرنسي وحُسم النصرُ لصالحها، عندها أعلنت وفاة زوجها وأقامت له جنازة ملكية واعتلت الحكم بشكل علني، وكانت ملكة عاقلة لبيبة على دراية تامة بأصول المسائل وفروعها وصار الناس يتفاءلون خيراً بقدومها وبدأ الفقراء يتنعمون بميزاتها وحسناتها. لم تكن حكومتها استبدادية ولا تشرع في عمل من الأعمال حتى تعقد مجلس الشورى ولا تصدر قراراتها إلا بعد الرجوع إلى رأي وزرائها ومستشاريها. وظهرت أكثر من ملكة في اليمن في القرن العاشر الميلادي منهن ملكة أورفا توفيت عام 1090م. وفي القرن الثالث عشر ظهرت نساء مرموقات في بلدان إسلامية بينهن السلطانة راضية في دلهي وتوركان خاتون

وصفوت الدين ملك خاتون وساتي بيك خان وتندو في أسيا الوسطى وفي القرن ذاته حكمت ملكات في أندنوسيا لمدة 24 سنة دون انقطاع وحملن أسماء مثل تاج العالم ونور العالم.

الاستنتاجات

إن المنزلة الاجتماعية للنساء لا علاقة لها بعقولهن أو دينهن، لأننا يمكن أن نتساءل هل أن التمايز بين السيد والعبد مبني على أساس نقص في العبد؟ الحقيقة، لا، بل إنَّ النظام الاجتماعي هو الذي فرض هذه الحالة، وقد نوقشت هذه الحالة في الحضارات القديمة ، ناقشتها المدرسة السوفسطائية التي اعتبرت العبد عبداً بالاتفاق وليس بالطبيعة ومن ثم ناقشها أفلاطون وأرسطو اللذان اعتبرا العبد عبداً بالطبيعة وليس بالاتفاق، كذا الحال بالنسبة للدين فليس الدين هو الذي يفرق بين المرأة والرجل بل النظام الاجتماعي ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

لذا فان مفهوم الجندر الحديث لا يشير إلى الفوارق بين الرجل والمرأة من الناحية البيولوجية بل يشير إلى دراسة العلاقات المتداخلة بين الجنسين في المجتمع وتحكم هذه العلاقة عوامل مختلفة كالعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والبيئية، وما مدى تأثير هذه العوامل في إنتاجية وقيمة عمل المرأة والرجل. على هذا الأساس فإنَّ اتجاه الجندر الآن هو تنحية الفارق البيولوجي بين المرأة والرجل جانباً لأن الناحية البيولوجية ثابتة وليست متغيرة، والنظر إلى النواحي المتغيرة التي تؤثر في تركيبة العلاقة بين الرجل والمرأة، والتي تحدد أدوارهم الاجتماعية، وهذه الأدوار منظمة حسب الثقافات المختلفة، لذلك فهي قابلة للتغير بحسب هذه الثقافات في زمان ومكان معينين، ويصبح النظر للعلاقة بين الجنسين أي الجندر على أنه نوعٌ اجتماعيٌ وليس طبيعياً، هذا التصور هو الذي يمكن أنْ يؤخذ بنظر الاعتبار في إحداث تغير في المجتمعات من أجل إحداث تنمية مستدامة.عندها يصبح مفهوم الجندر هو الفروق بين الجنسين على أسس ثقافية واجتماعية وليس على أسس بيولوجية فسيولوجية.

أثبتت الدراسات العلمية بأنه لا فرق بين الرجل والمرأة من ناحية الذكاء على العكس مما شاع بين الناس وهو إنَّ الرجل أكثر ذكاءً من المرأة .

الأسرة هي اللبنة الأولى لتكوين المجتمع وبالتالي فإنَّ مفاهيم وعادات وتقاليد المجتمع تبدأ من الأسرة، ومن الأسرة تبدأ عملية تكوين الخوف أو محاربته أو اكتساب الجبن أو التخلص منه أو فرض التسلط والدونية أو محاربته ووضع الأمور في نصابها الصحيح لذا فموقع المرأة يبدأ من الأسرة فإذا وضعت في مكانها الصحيح يصلح المجتمع والعكس بالعكس

لم تستطع المجتمعات الشرقية أن تتجاوز نظرتها القديمة للمرأة مثلما استطاع الأوروبيون تجاوز هذه النظرة، واحتلت المرأة المكانة التي تليق بها في أغلب المجتمعات الأوروبية.

الوظائف في المجتمعات المعاصرة تشغل وفقاً للقدرة وليس وفقاً للأسس البيولوجية . والقدرة تتحدد بقابلية الشخص على الفعل ولا تتحدد بجنسه فمن تكنْ لديه الإمكانية على فعل عمل ما عليه أن يؤديه ومن لم يكن لديه تلك القابلية عليه أن يتنازل لغيره.

هوية البحث

اسم الباحث: أ.د. عبد الجليل كاظم الوالي - أستاذ الفلسفة في قسم الفلسفة في جامعة الإمارات العربية المتحدة. يعمل البروفيسور الوالي في مجالات الفلسفة اليونانية والنظريات الأخلاقية المعيارية والوصفية والفلسفة بين الثقافات والفلسفة الإسلامية.

عنوان البحث: دور المرأة المفكرة في مرآة العقل الناقد

تأريخ النشر: شباط 2023

رابط البحث: https://orcid.org/0000-0003-0119-302X

ملاحظة:

الآراء الواردة في هذا البحث لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المركز، إنما تعبر فقط عن وجهة نظر كاتبها

عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكوميّة، وغير ربحّية، تأسس سنة 2015م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

يحرص المركز للمساهمة في بناء الإنسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

ويسعى المركز أيضاً للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسة التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، بما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org